حول "أباطيلٌ وأسمارُ"

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى أله وصحبه ومن والاه، وبعد

(1)

أُشهِدُ الله سبحانه، أني ما قرأت كتاباً، أو عاودتُ قراءة كتابٍ، للشيخ العَلّامة، عملاق العربية في عصرنا، محمود شاكر، إلا وعجبتُ كيف تحمّل لأواء العيش بين الناس في زمننا هذا، وهو من عاش تاريخ أمته كله في حاضر نفسه، وتشبَّع بلغة قومه، حتى صار لسانه لا يعرف كيف يُخِلُ بها. فلا عجب أنه وضع نفسه في حبس اختياري قيد بيته، لا يُخالط الناس، ولا يَنزح من أخبارهم وأقوالهم، مدة ثلاثة عشر عاماً[1]، إلا قدر رشفة العصفور!

وقد أقبلتُ منذ أيامٍ، على قراءة ذلك السِفْرِ العظيم "أباطيلٌ وأسمار"، مرة ثالثة، على ما أذكر، بعد أن ظلّ يُطالعني من على رفِّ مكتبتي، عدة أشهر، أراه فيها، فتُقدم نفسي على تناوله، ثم يشغلني شاغلٌ فلا أهَّم بما عزمت. حتى كان يوم، قرأت فيه خبراً عن التعليم في مصر، ففزعت، ثم تذكرت، ثم عزمت، فتناولت الكتاب، الذي يمسّ هذه المسألة في صميمها، كأن صاحبه، حياً يرى ويسمع ويألم بما نألم، ويستنكف ما نستنكفُ من رزايا وبلايا، رزأتنا بها خطايانا قبل أن يرمينا بها عدونا.

والكتاب، وهو يضمّ مجموعة مقالات نُشرت في الستينيات من القرن الماضي (1964) في مجلة الرسالة، في خطته الرئيسة، هو حديث عن فضيحة رجل نصرانيّ مُبشرٍ هالك اسمه "لويس عوض"، (أسماه عملاقنا أجاكس عوض تشبيها بذلك البطل اليونانيّ أجاكس تلامون، الذي حاصر طروادة، والذي ظنَّ لويس التالف أنه هو هو في بطولته الخيالية!).

ولكن ذلك الغرض، استنفذ عدة مقالات تبلغ خمسة لا أكثر، نفذ منها عملاقُنا إلى قرار أعمق وغرض أبعد وأخطر من مجرد فضح سريرة رجل جاهل مشوّه النفس، كريه رائحة الفكر، عديم العلم. وذلك الغرض هو من هم وراء هذا العميل البغيض الحاقد، أو الشرلتان (كما أسماه عملاقنا، والشرلتان Charlatan هو الدَّعيّ الجهول) النابح المُتنفّخ بهواء عبيقه الجهل والحقد، وما هي خطتهم التي رسموها، وقاموا عليها، لا في عدة سنوات، بل على مدى قرنين من

[1] أباطيل وأسمار ص 21

الزمان، تلاحق فيهما بعضهم بعضاً، وتواصلوا كأنهم تواصوا على إنفاذ ذلك المُخَطّط الحقود النكد، لتدمير ثقافتنا ولغتنا، بل وتاريخِنا كُلَّه وحضارتنا جميعا "أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ" الذاريات 53.

(2)

ويحسن بي هنا أن أثبت عناوين المقالات، إذ هي بذاتها ترسِم خطة الكاتب في تناول موضوعها. هي، بعد عرض الكتاب:

1. ليس حسناً ...
2. بلْ مَعيباً ...
3. بل قبيحاً ...
4. بل شنيعاً ...
5. لا تنقضي
6. هذه هي القضية ..
7. وهذا هو تاريخها ..
8. وهذه هي آثارُها ..
9. وهذه هي أخبارُها ..
10. وهذه هي أخطارُها ..
11. وأيضاً
12. وما أدراك ما هي ..!
13. نارٌ حامية ..ّ
14. أم على قلوبٍ أقفالها ..
15. وأقول نعم ..
16. كاد النعام يطير !
17. أما بعد ..
18. أمهلهم رُويدا ..
19. باب الفحصِ عن أمرِ دِمْنَة
20. تتمة الفحصِ عن أمرِ دِمْنَة

21. على أهلِها تَجنى براقش
22. ليس الطريق هنالك ..
23. ثُمَّ ليس الطريق هنالك ..
24. ثُمَّت ليس الطريق هنالك ..
25. ضفاضع في ظلماء الليل ...
26. ثمّ غُلّقت الأبواب ..

فهي ستة وعشرون مقالة، بالتمام ..

******

ولويس (أجاكس) عوض هذا، من مواليد المنيا، بالوجه البحري من ريف مصر، عام 1915، وانتقل إلى رحاب زبانية جهنم في عام 1990. وقد خلف هذا الشرلتان، تراثاً، خلياً من أي فائدة علمية، ولا حتى فيما كتب في لغة أسياده من الأجانب الانجليز، خاصة حين نتحدث عن الشعر العربي والنثر العربي واللغة العربية وتاريخ العرب. وقد تقلد مناصب عديدة، في الجامعة الصري، ووزارة الثقافة ومؤسسات صحفية، كلها لا تضيف إلى انحطاط فكره وصغار غرضه شيئاً. فكلها كانت، كما كان، ولا يزال العهد، من جراء سياسة تخريب متعمّد لحياة العرب والمسلمين، كانت ولا توال، بفرض وصايات مُفرضة حانقة، يفرضونها على الساحات الأدبية والفكرية، لتخريب عقول الشباب الذي ليس له قُدرة على التحقيق والتمحيص، فينخدع بلفظ "الدكتور"، وبأسماء كبيرة لمؤلفات تأخذ من فكر الشباب قسطاً، بدلاً من أن تزيده. وقد نشر أفاك العلم ذاك، كتابا في "فقه اللغة العربية"**!!** جرّح فيه لغة القرآن، وأهان الإسلام، فغله فِعل غيره من الحاقدين على الإسلام، المُتَغَرِّبين دينا وثقافة، وما أكثرهم، فلم يكُ بدٌّ من سحبه من الأسواق المصرية وقتها.

والأمر الذي أثار عليه بركان الغضب من قلم عملاقنا، هو ما اطّلع عليه من سلسلة مقالاتٍ لذلك للويس هذا، في جريدة الأهرام، الذائعة الصيت في العالم العربي وقتها، والذي كان ذاك الجهول مستشاراً ثقافياً لها (انظر ما تفعل السلطة لتخريب العقول**!**)، عن شيخ المعرّة، أبي العلاء المعريّ**!** أي والله، ذاك الأعجمي العقل واللسان، يكتب في تاريخ أبي العلاء، وفي كتابه "رسالة الغفران" بالذات. ومن اطّلع على أسطرٍ من تلك الرسالة، أو طالع بعضاً من شعر أبي

العلاء، لعرف ما أعنى، وفهم لما ثار بركان عملاقنا حمماً أذابت جلد ذاك الشرلتان، حتى كان ما كان، مما سيأتي في آخر مقالة "ثمّ غُلّقت الأبواب"، والله المستعان. وقد أحسن أستاذنا الكبير رحمه الله، بتصدير كتابه ببيتين لشيخ المعرة، استلّ منهما اسم سِفْرِه، يصفان حال الناس من المتعالمين المُتَنَفّخين، لابسي ثوبي الزور، من شرلتانات خائنات، أو رويبضات خائبات:

هل صحّ قولٌ من الحاكِي فنقبَلُه *** أمْ كلّ ذاك أباطيــلٌ وأسمـــارُ

أما العقـــــول فآلت أنّه كذبٌ *** والعقل غَرسٌ له بالصدق إثمارُ

صدق والله شيخ المعرة، فغالب ما نرى من حديث الناس، من المتنفِّخين، هو مجرد أباطيلُ زائفة، وأسمارُ ليلٍ هائمة، لا يصدقها عقل.

والمعيب، القبيح، الشنيع، الذي تحدث عنه عملاقنا، هو ما كتبه ذاك الشرلتان عن تاريخ أبي العلاء، وكأنما درسه دراسةً فاحصةً بعينٍ درِبَة على نقدِ التاريخ والأدب! وهو لا يحتوى لا على علم ولا على أدب، كما وصف عملاقنا. وسوف نناقش مقالته، ونبيّن ما ذكره علامتنا في زيفها في حينه.

******

(3)

يَعرِضُ العلامة الشيخ، ما أحنقه على لويس عوض، المُبشِّر القبطيّ العميل، في مقالاته التي أصدرها على صفحات جريدة الأهرام، متحدّثاً عن تاريخ شيخ المعرّة، في مقالته الخامسة بالأهرام**!**، بعد أن تباطأ في الحديث عمّا أزمع الحديث عنه في أول مقالاته، وهو دراسة تاريخ شيخ المعرّة، ودراسة ما كتب في "رسالة الغفران"، قائلاً (أي لويس هذا):

"هذا هو الجو السياسيّ المعقد الذي عاش فيه المعريّ حتى اعتكف في معرّة النعمان حول 401هـ، ومنذ أن اعتكف فيها حتى مات عام 449 هـ. فحلب، وهي على بعد عدة أميالٍ قليلة من المعرّة، يتبادلها أولاً الحمدانيون، تُظاهرهم عسكر الروم والفاطميون. ثم يتبادلها ثانياً، المرْداسيون، تُظاهرهم عسكر الروم والفاطميون، ولم تكن أنطاكية أحسن حالاً، فقد ظلّت مائة وعشرين عاماً كاملة في يدِ الروم[2]، من سنة 353 هـ إلى 477 هـ، وُلد وهي لهم، ومات وهي لهم، وتعلّم بها وهو صبيّ وهي لهم. فقد كان يختلف إلى مكتبتها مع أسامة بن منقد، فيما روت كتب القدماء، وكانت فيها، يومئذ حضارة زاهرة، حسب ما روى ياقوت الحموي.

وقد كان حكم اللاذقية حكم أنطاكية، كانت في يدِ الروم زمن المعريّ، وقد تعلّم في اللاذقية كما تعلّم في أنطاكية. ففيما روى القفطيّ والذهبيّ أنه نزل بديرٍ فيها، "ولقي بهذا الدير راهباً، قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل، بلغة طه حسين، أو باختصار: أخذ عنه اليونانيات، فما علوم الأوائل هذه التي كانت تُقرأ في الأديرة، تحت حكم الروم، إلا آداب اليونان وفلسفتهم في لغتها الأصلية. والحقّ أنه لا يُعرف شئ عن تعليمه الرسميّ حتى سن العشرين**!** وهي سنّ التكوين. إلا أنه تعلّم في حلب ثم أنطاكية، ثم في اللاذقية ثم في طرابلس. ومثل هذا الغموض الذي أحاط بتكوينه العقلي حتى سن العشرين، يحيط أيضا بحياته كلّها فيما بين العشرين والخامسة والثلاثين، حيث نجده يعيش في المعرّة، خمس عشرة سنة، بين 383 هـ و 398 هـ، بها عاش تحت الحمدانية والفاطمية والمرداسية والروم"[3] اهـ

تلك هي كلمات أجاكس عوض، عن خلفية المعريّ وزمنه وتاريخه وتعليمه "الرسميّ"**!**

[2] وحكم الروم لما استولوا عليه من بلاد المسلمين، كطرطوس وحلب واللاذقية ومعرة النعمان ومعرة مصرين، كان يتبع سياسة الأرض المحروقة، فها هو ابن العديم يقص ما فعل نقفور ملك الروم عام 357، حين هاجم معرّة النعمان "ففتحها وأخرب جامعها وأكثر دورها، وكذلك فعل بمعرّة مصرين، ... وسار إلى كفركاب وشيزر وأحرق جامعها ثم إلى حماة ففعل ذلك، ثم إلى حمص، ... ثم إلى اللاذقية ... ثم إلى أنطاكية ...وأما القرى فلا يُحصى عدد ما خرّب منها وأحرق .." انظر بغية الحلب في تاريخ حلب، ابن العديم، ص 92 وبعدها طبعة دار الكتب العلمية، 1996.

[3] أباطيل وأسمار، ص 27-28

وأستسمح علامتنا والقارئ معا أن أعلّق على هذه الفقرة بكلمات من عندي، قبل أن أشرع في بيان الحوارق التي أرسلها الشيخ شاكر على رأس الشرلتان، فبيّن كذبه وجهله وتدليسه في كلّ حرف منها.

فلا أدري والله ما الذي قصد الرجل بتعليمه "الرسمي!"؟! ما التعليم الرسميّ الكائن في زمن أبي العلاء!؟ أيقصد أي جامعة أو معهد اختلف إليه؟ أو شهادة رسمية حصل عليها؟! ما هذه اللغة الركيكة التي لا تحمل معنى في ذاتها، حين يكون الحديث عن أبي العلاء المعريّ، أحد قامات الأدب العربي التي لا تُدرك، في تاريخ العرب كله على امتداده، جاهليّه وإسلاميّه.

ثم تلحظ تأكيد الرجل على "الحضارة الزاهرة" التي نعمت بها أنطاكية، حين كانت تحت يد الروم! ثم ما باله إذن، وفي أنطاكية "حضارة زاهرة" أن يقول " ولم تكن أنطاكية أحسن حالاً .." فإن هذا مُشعرٌ بأنها في حال سيئ كحال من قارنها بها! أليس كذلك تُفهم لغة العرب؟

ثم إن أحاط الغموض بحياة المعريّ حتى بلوغه سن العشرين، ثم استمر الغموض محيطاً به حتى بلغ الخامسة والثلاثين من العمر، فما هو المعروف إذن عن أبي العلاء، الذي، كما سيبيّن شيخنا بعد، قد ترجم له ثلاثون مؤرخاً كبيراً معروفاً من مؤرخي الإسلام! فماذا أرّخ هؤلاء العلماء؟ غموض في غموض؟ أم إنه المدلس الشرلتان هو من غَمُضَ عليه تاريخ أبي العلاء وأدب أبي العلاء وزمن أبي العلاء، لعدم دراسته لأيها، إلا تصفحاً في كتاب أو كتابين، يلتقط كلمات من هنا وهناك، يرْصُفها ليقال إنه عالمٌ قارئ متفحّص! وهو ما يذكرني بأحوال "رويبضات أيامنا وشرلتانات زماننا" في عبثهم بالعلم من خلال تصفح النت، واستفتاء سيدنا "جوجل"! والله المُستعان، ولكلِ زمان بليته.

والعلم إن لم يك نافعاً، جالباً لجديدٍ وكاشفاً ستر مجهول، أو مبيناً خِبأ مستور، ما له داع ولا معنى، إلا المزايدات والتعالم الوقح البارد، كما قال شيخ المعرة، فيما ذكره شيخنا:

إذا كان علمُ الناسِ ليس بنافـعٍ *** ولا دَافعٍ، فالخُسْــرُ للعلمـــاءِ

قضى اللهُ فينا بالذي هو كائنٌ *** فتَـمَّ، وضاعت حكمة الحكماء

******

(4)

كان تشريح جثمان تلك الفقرة التي مات عقل صاحبها، هو موضوع المقالات الخمس الأولى من سلسلة شيخ العربية، كما أسلفنا. وقد كان بيانه، فيها تاماً شاملاً شافياً، فيه حق العلم، وعليه نور العلم وأبهته.

سنعرض ما أورد على ذلك المقطع في عدة نقاط، نسهّل فيها على القارئ، وعلى أنفسنا، بيان خَطَلَ ذلك الكلام المُرسل المُعْوّجّ أصلاً وفرعاً، مع التنبيه إلى اللغة العربية الأنيقة الممتعة التي، مع علو كعبها، ممتلئة بالسخرية اللاذعة، والقدح المرير في ذلك الكائن الأجاكسيّ، حتى إنّ قارئ كلمات الشيخ في وصف الرجل، يكاد يستلقي من الضحك، متصوراً حال ذلك البائس، مقروح الكبد حقداً على العربية والإسلام، كما ضحك شيخنا كثيراً من قراءة ما لوّث به الرجل صفحات الأهرام من أكذوبات وافتراءات.

1. الغموض الذي ادعى أجاكس عوض أنه يلُف تاريخ المعريّ منذ نشأته، وحتى وصل سن الخامسة والثلاثين من العمر. وكما نقلت من قبل، فقد سرد شيخنا أسماء ثمانية وعشرين مؤرخاً، منهم ثلاثة من معاصريه، وهم الثعالبيّ والخطيب البغداديّ والباخرْزيّ، من عام 429 هـ (وفاة الثعالبيّ)، وحتى القرن الثاني عشر الهجري، وفيها العباس الموسويّ، حتى عصرنا الحديث، ممن تناولوا الكتابة عن المعريّ، منصفين أو قادحين، مثل طه حسين وغيره، أي ما يقارب ألف عام من البحث والتأريخ، لخصها عوض، في كلمات من فقرة على عمود في صفحة الأهرام (وعليه العوض) في تاريخ المعريّ كما أورده كلّ هؤلاء الجهابذة، ومنهم ابن حجر والسيوطي وابن تغري بردي وابن كثير وابن الأثير، والقفطي والذهبيّ، اللذين اتكأ عليهما "عوض" في تزويره لما نقل، كما سيأتي، وغيرهم من عمالقة مؤرخينا.

والحق الذي بيّنه شيخنا، بعد أن جال جولة طويلة فيما ورد عن أبي العلاء، أن شيخ المعرّة نشأ في بيت علم هو بيت بني سليمان بن داود بن المطهّر التنوخيّ [4]، فتولى القضاء في المعرة أجداده، تلقى فيه علوم القرآن وقراءاته والحديث والمصطلح والفقه وأصوله والبلاغة والعروض، على أيدي والده وأعمامه، بل إن جدّته أم سلمة كانت ممن أخذ عنهم الحديث[5]. وقد ذكر ذلك كله الكثير من مؤرخيه مثل ابن العديم، تلميذ ابن عساكر، في كتابه "بغية الطلب في تاريخ حلب".

2. أما البلية الثانية، كما سمّاها شيخنا، فهي ما أتى به من ذكر "أنه نزل بديرٍ فيها، "ولقي بهذا الدير راهباً، قد درس الفلسفة وعلوم الأوائل، بلغة طه حسين، أو باختصار: أخذ عنه اليونانيات، فما علوم الأوائل هذه التي كانت تُقرأ في الأديرة، تحت حكم الروم، إلا آداب اليونان وفلسفتهم في لغتها الأصلية".

---

[4] راجع "الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعري" ابن العديم ص3 ، مكبوع ضمن كتاب "تعريف القدماء بأبي العلاء"

[5] راجع إسناد المعريّ عنها في "بغية الطلب في تاريخ حلب" ابن العديم ص 2296، طبعة دار الفكر

الرجل لم ينقل إلا عن كتاب قديم لطه حسين، كتبه عام 1913، قبل طباعة كثير من مراجع تتحدث عن تاريخ أبي العلاء. لكنك تجد لويس قد نقل عن طه حسين، وأفسد النقل "باختصار" كما قال، ولم يرجع لا إلى القفطي ولا إلى الذهبيّ. كلّ ما أراده، أن يثبت أثر النصارى وعلومهم في شيخ المعرّة، لا غير.

3. ثم عن خبر"راهب دير الفاروس"، فقد بيّن شيخنا أن الخبر نفسه مدسوس لا صحة فيه لأمور عدة. منها أنّ معاصرو المعري الثلاثة الذين ذكرنا، لم يذكروا هذا الخبر فيما كتبوا عن المعريّ، وهم من هم من علو الكعب في التأريخ! ثم إن الثلاثة الذين تبعوهم، وهم السمعاني وابن الانباري وابن الجوزي، فلم يذكروا القصة رغم تماديهم في الحمل على دين أبي العلاء. ثم تبعهم القفطي وياقوت الحموي فالذهبي. وقد كان القفطي من المغالين في نقد أبي العلاء، فحكى القصة، لكن بألفاظ، حَوّرَها لويس، من حيث إنها تعكس أن ذاك الراهب المزعوم كان نفسه شاديا في علوم اليونان! ثم نقل الذهبي كلام القفطي كما جاء متحاملاً على دين أبي العلاء كذلك. ثم نجد أن ياقوت الحمويّ لم يذكر القصة رغم علمه الذي لا يُبارى في أحوال أهل الشام، فهو معاصرٌ للقفطي، محب وموقرٌ له، وممن نشأ في حماة، وما زال يعاودها بعد سفر تلو سفر ليستقر بها مقاماً.

(5)

4. ثم إن الخبر الزائف ذاك عن "راهب دير الفاروس" يوحي بأن أبا العلاء كان لا يزال صبياً صغيراً يمكن أن تساوره الشكوك من كلمات عن آداب اليونان وفلسفتها، من راهبٍ شادٍ في العلم. فهذا يجعل أبا العلاء في عمر لا يزيد عن إحدى أو اثني عشرة من العمر[6]، إذ إنه حين بلغ العشرين، كان قد وصل لدرجة من العلم لا يحتاج معها لطلب علمٍ من أحدٍ، كما كتب لخاله في ذلك العمر "وقد فارقت العشرين من العمر، ما حدّثت نفسي باجتداء علمٍ من عراقي أو شآم". ومعلوم أنه لم يكتب في صباه إلا ديوان "سقط الزند"، كما أشار التبريزي "وقال الشعر وهو ابن أحد عشر عاما" .. ويكون المقصود هو "سقط الزند، لأم شيخ المعرة لم يكن يُحب أن يُقرأ عليه دوان السقط، ويتبرأ من بعض ما فيه قائلاًأ أنه إنما دفعه لمديح نفسه فيه مدحا زائدا، نزق الشباب وغرٌّته. لكن دوان السقط ليس فيه ما يوحى بخلل في الدين أو الإلحاد، فإين ظهر أثر كلام "راهب دير الفاروس" عليه إذن؟ وكلّ ما كتب

6 أباطيل وأسمار ص 78

بعدها كان بعد بلوغ العشرين بلا ريب. لابد كما قلنا أن يكون في بداية عقده الثاني من العمر، وهو العقد الذي استوعب فيه كلّ العلم حتى أصبح لا يستجدى "علم عراقيّ أو شآمٍ".

5. ثم إن كان هذا كذلك، فهو يعني أن ذاك الصبيّ الضرير النحيل، الذي كفلته أمه، تُطعمه الطعام بعيداً عن أعين الناس، حتى لا يروا منه ما يعيبه أو أن يتندروا به عليه، قد خرج إلى طرابلس، ونزل بدير الفاروس (وقد بين شيخنا الفرق بين تعبير نَزَلَ واجتاز، من مدة الإقامة وغرضها)[7]، قد ذهب ومعه رفيق، لابد من أهله. فمن من أهله، الذين عرفنا علوّ شأنهم في العلم، يرضى أن يدع صبياً مسلماً يجلس إلى راهبٍ يبلبل عليه دينه، ويحرفه عن ملّته، وهو جالس أمامه "واضعا كفه تحت ذقنه لا يبالي" كما قال شيخنا! ثم جعلها "وتعلم في اللاذقية" أي ذلك المرور السريع إن صحّ الخبر ابتداءً، وهو غير صحيح، كما رأينا. هذا كلامُ أخرقٍ مجنون، لا يتفوه به عاقل يعرف ماضي العرب، وماضي أبي العلاء بالذات، وعائلته وشرفها. والعجيب أن ابن العديم، وهو من هو في دقّة التحري، قد صنف كتاباً في الدفاع عن أبي العلاء، ذكر فيه كلّ ما يتعلق بنسبه وعائلته وتعليمه. فلو شغل ذلك التعيس، المدعو لويس، نفسه بقراءة ذلك الأثر لأراح الناس مما سوّد من صفحات. وصدق الشاعر[8]

فعَدِّ عن الكِتابةِ، لَسْتَ مِنْها *** ولو لَطَّخْتَ ثوبَكَ بالمِدادِ

6. ويعترف عوض بأن ليس له في العربية فهمٌ ولا همّة، فيقول في ترجمة مضحكة وضعها لنفسه لنفسه، يخاطبها بلسان طرف ثالث هو "لويس عوض!!"، مقدمة لقصائد أسماها بلوتو لاند، وقصائد أخرى، وهو اسم يُشعر القارئ بأنه قائم في أعالى السماء، مقيما بين السحاب السيّار، مشرفا على البشر، ينزّل عليهم "بلوتولاند ... وقصائد أخرى (لا وقت عنده ليذكر اسمها، فسيقرؤها قُرّاءه الصالحين!، يقول "ص99"فإذا أضفنا إلى ذلك أن إحساسه باللغة ؛أي إحساس لويس عوض!) ضعيفٌ بالفطرة (غريبة، هذا صحيح!!)، علمنا كيف تأتى له أن كَسر رقبة البلاغة (وهل في ذلك شكٌّ يا زول؟!) وقد اعترف لي (يعنى أن لويس عوض اعترف للويس عوض!) بأنه لم يقرأحرفاً واحداً بالعربية، بين سنّ العشرين والثانية

[7] السابق ص 114
[8] أباطيل وأسمار ص 98

والثلاثين (أي اثنتا عشرة سنة!!)، إلا عناوين الأخبار في الصحف السيّارة، وبعض المقالات الشاردة، ألزمته الضرورة السياسية بقراءتها. فإحساسه باللغة أجنبيّ جداَ، على كلّ حال" اهـ [9] .

وأقول، مستسمحاً شيخنا في القول بين يديّ كتابته: كيف إذن سمح لنفسه ذلك القبيح السيرة الكريه رائحة الفكر، أن يكتب عن "رسالة الغفران" لشيخ المعرّة، وهي من أبلغ آثار العرب نثراً؟! أنْ يكْسرَ رقبة الفصحي في كتاباته، فهذا أمر سهلٌ استيعابه ممن كُسرت رقبة عقله، أما أن يتناول شعر المعري ونثره بالكتابة، ولو خطفاً وتدليساً وسرقة، كما فعل، فهذا ما لا يجوز! في هذا الموضع، من مقال (بل شنيعاً)، رفع شيخنا كاهل إسباغ لقب "الدكتور" عن لويس، بعد أن تمّ فضح جهله وتدليسه وحديثه فيما لا يعرف، بما لا يُصدّق.

7. ثم تأتي جهالة شنيعة حقاً، كشف عنها علامتنا، ذكرها الجاهل الحقود، في كتابته عن رسالة الغفران، فتعدى فيها بالجهل المُريع على المعري وعلى اللغة وعلى القرآن، الذي ادّعى أنه قرأ تفاسيره ليستخرج ذلك الخَطَلَ منه.

ذلك أن لويس قرأ في كوميديا دانتي الإلهية، كلامه عن مريم العذراء، وتسميتها "روزا مستيكا" أي الوردة السماوية (لاحظ، دانتي يقصد الوردة التي محملها بأيدينا، فيشبّه بها مريم العذراء)، فقرن ذلك بقول الله تعالى في سورة الرحمن "فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ" 37، وبما قاله المعريّ شعراً

فإذا الأرضُ وهي غَبراءُ صَارتْ ** من دمِ الطَّعنِ وردةً كالدِهان

فاستنتج منها ذلك الجهول أن الوردة التي ذُكرت في شعر دانتي، هي الوردة التي ذُكرت في القرآن، وهي نفسها الوردة التي جاءت في شعر المعريّ، فلابد أن دانتي أخذ عن القرآن الكريم، وعن رسالة الغفران للمعريّ! وأضاف أن استخدام "الوردة" مشهور في الأدب العالميّ، فهو من قبيل التعبير الرمزي.

ويظنّ القارئ المتسرّع أن في ذلك إعظاماً للقرآن، وللمعريّ. لكنه في الحقيقة أبعد ما يكون عن ذلك. فإنه، كما بيّن علامة اللغة الشيخ شاكر، وكما ورد حقا في التفاسير وفي معاجم اللغة،

---

[9] السابق ص 99

أن كلمة "وردةٌ" التي جاءت في وصف أهوال يوم القيامة في سورة الرحمن، ووصف هول وقعات الحرب في بيت المعريّ، لا يمكن أن تكون "وردة الروز الحمراء"، فميف يكون الهول مقروناً بالورود الحمراء، أيها الجاهل المتعدي؟! بل الحقّ أن كلمة "وردة" في القرآن وفي شعر المعريّ، هي ليست اسماً اصلاً، بل هي صفةٌ تعنى أن الأرض صارت "حمراء"، إما من الحمم والبلايا أو من دم المحاربين. وهي إذن، لا علاقة لها بالوردة المشمومة التي نحملها في أيدينا. ففي العربية يُقال أسدٌ وردٌ وحصان وردٌ، فهي صفة للفرس وللأسد، يعنى حَمَارُ جلديهما [10].

كذلك ألجأته (أي ألجأ لويس) صليبيته أن يقرأ الشعر مصَفَّحاً، فنقل قول المعريّ

صَلِيتُ جَمْرَة الهَجِيرِ نَهَارا ** ثم بُانَتْ تغُّصُ بالصُلْيَانِ

و الصُلْيَانِ نوعٌ من الشوك ينمو في الصحراء، وترعاه الإبل لرطوبة جذوره. فيقول أبو العلاء، واصفاً الحرارة الشديدة التي مروا بها في هجير النهار، بأنهم خلَّفوها وهي مليئة بذلك النوع من النبات. فدونها المسكين الحاقد

صَلِيتُ جَمْرَة الهَجِيرِ نَهَارا ** ثم بُانَتْ تغُّصُ بالصُلْبانِ[11]

فقلب الياء في الصُلْيَانِ إلى الباء في الصُلبانِ (جمع صَليب!)! فالصُلبان تملأ رأسه، أينما راحت عينيه!

(6)

ما قبل "القضيّة ..!"

وقبل أن أتقدم في سيرى لعرض ما يأتي من الكتاب، وهو لبّ المسألة، أريد أن أوضحَ أمراً لعل شيخنا رحمه الله، لم ينتبه إليه، وهو ما لا يزال يثير عجبي، وعجب الكثيرين من محبينه، ولا أدرى، حتى كتابة هذه السطور، كيف وقع فيها، وكيف كان فهمه لها! وجلّ من لا يُخطئ.

[10] السابق من ص 100- 103

[11] السابق ص 103

وهذا الأمر هو موقف شيخنا من الهالك عبد الناصر، وموقفه من جريدة الأهرام، التي عُرِفت، في ذلك التاريخ، بولائها لنظام الحكم الناصري الديكتاتوري. وقد كُتِبت هذه المقالات منذ يونيو 1964، أي بعد شهر من إطلاق سراح سيّد قطب، أي يعد أن عُرف ما كان من تعذيب لهذه المجموعة من الشهداء في سجن صلاح نصر. كذلك بعد أن استزف الهالك جيش مصر في حرب اليمن، منذ 1962، فقط ليفرض سيطرته على المنطقة كلها، نكاية في آل سعود وقتها.

ومع ذلك فقد شهد شيخنا لجمال عبد الناصر بأنه قائد عروبة، أنقذ كرامة العرب[12]! وأن الأهرام جريدة ذات احترام ومصداقية، رغم أن رئيس تحريرها وقتذاك كان محمد حسنين هيكل، الكذوب الأكبر! الذي استمر ف رئاسة تحريرها من عام 1957 إلى عام 1974.

فلا أدرى، على أيّ أساس قيّم شيخُنا الهالكَ عبد الناصر، وكيف كوّن رأيه في جرية الأهرام وقتها، واستمر في مخاطبة مؤسستها، وكأنهم يعرفون للدين حُرمة، وللغة قيمة! لكن .. نعود إلى القول، جلّ من لا يخطئ.

(7)

"وهذه هي القضية .."

لكن القضية التي كان شيخنا يسعى إلى إيضاحها، والكشف عن خباياها، هي قضية، أصلية، ومن فروعها المنقضمة ذاك اللويس عوض، ألا وهي قضية العربية الفصحى، وقضية محاولات القضاء عليها، واستبدال اللغة العامية محلها.

وهذا الأمر، لم يبدأ من وقت كتب الساقط لويس عن "كسر رقبة البلاغة" و "موت الشعر العرب بموت أحمد شوقي"، بل هذ قضية قديمة قِدَمَ تولّي محمد على ولاية مصر. حيث بدأ في ترجمة أعمال الأوربيين، العلمية والاجتماعية والأدبية. وفُتِحت في مصر وقتها مدارسٌ لتعليم الطلبة من ذلك الإرث الذي عاد لأصحابه بعد غيبة قرونٍ!

[12] أباطيل وأسمار ص 149

لكن المستشرقين كانوا لهذا الأمر بالمرصاد، فأقنعوا محمد على بإغلاق تلك المدارس، وإيقاف ذلك التعليم، وإيفاد المبعوثين من مصر، ليتلقوا العلم بالخارج، في لغته الأصلية - زعموا! وكان هذا بالطبع بداية التغريب للفكر الإسلاميّذ والغزو الثقافي لبلاد المسلمين.

لكن نعود إلى دور ذاك اللويس عوض مؤقتاً، بعد أن عاود إعادة بث الدعوة إلى العامية، وهو في هذا خليفة أستاذه للهالك سلامة موسى من قبل، وفي مؤسسة الأهرام كذلك!

فقد قال كلب الروم لويس "وعقلية لويس عوض عقلية زمنية حقاً، فهو يفهم أن الانقلاب اللغوي لم يقوّض أركان الدين في أوروبا، وإنما قوّض أركان الكنيسة، التي خشيت أن يقرأ الشعب الساذج كلام السماء بلغة يفهمها، فتسقط عن بصره الغشاوة (وبالطبع نحن نقرأ القآن بلغة لا نفهمها!) ويدرك أن رجال الدين يزيفون عليه من عندهم ديناً (وكذلك أهل الإسلام بالطبع!) ليسلم لهم قياده، ويبقى راكعاً أمام الأشراف. وهو يفهم (أي لويس عوض يفهم!) أن أبسط بائعة كر افتات في شيكوريل تعرف عن المسيحية أكثر مما كان يعرف البابا الذي شنّ الحملات الصليبية، أو البابا الذي كان يضاجع أخته، أو البابا الذي أحرق جيودانو برونو لأنه قال إن الأرض في ركنٍ مهمل من الكون، أو البابا الذي كان يبيع المؤمنين مربعات وقصورا في الجنة، أو البابا الذي أهدر دم مارتن لوثر لأنه طالب بإلغاء القسيس، وإزالة كل حاجز أو وسيط بين الله والناس"[13].

فانظر كيف يحاول هذا الثعبان الكذوب كيف يحاول أولاً أن يزيّن فعلة استخدام العامية في ترجمة القرآن، ليفهم الناس دينهم الصحيح! وأنّ يتخلصوا من كهانة العلماء! والله لا ندرى أيّ كهانة يتحدث عنها هذا المأفون!؟ إنّ العامة في الإسلام اجتالتهم الصوفية عن دينهم فاتخذوا وسائط من أوليائهم، فتصدى لهم أئمة أهل السنة، فبيّنوا زيف هذا الكلام، بقواعد اللغة الغربية وتفسير القرآن حسبها وحسب ما ورد في الأحاديث الشريفة! ثم ثانياً، يحاول أن يُظهر نفسه في صورة المخلص في النصيحة للمسلمين، بأن يبيّن اعتراضه على أفعال آباء الكنيسة الكاثوليكية وأفعالهم القبيحة! لكن، ما للإسلام وما فعله أولئك المقبوحين من آبائهم؟! أين في تاؤيخ الإسلام وخلفائه من أحرق عالماً، أو ضاجع أخته، استغفر الله، أو باع أرضاً للمؤمنين!؟ تدليس ما بعده تدليس ..!

---

[13] أباطيل وأسمار ص 144 وبعدها، وما بين القوسين هو تعليقات شيخنا على "الغلام الكاذب" كما أسماه ..

لكنَّ الأمرَّ المُضحك، هو ما قاله، في أمر العهد الذي أخذه على نفسه بشأن هجر الكتابة بالفصحى، واستبدال العامية بها .. اسمعه يقول "وإني لأعلم أنه قد عاهد الثلوج الغزيرة المنشورة على حديقة مدسمر، في خلوةٍ مشهودة، بين أشجار الدردار عند الشلال بكمبردج! ألا يخطّ كلمة واحدة إلا باللغة المصرية (يعني العامية!)، وقد برّ بوعده، فكتب شيئا بالمصرية سمّاه "مذكرات طالب بعثة"، ولكنه استسلم بعد ذلك وخان العهد، فلتغفر له الثلوج الظاهرة التي لم تدنّسها حتى أقدام البشر" [14]!!

بالله، هل هذا حديث رجلٍ رشيد عاقل!؟ أي عهد وأية ثلوج، وأية خلوة، ومع من؟ ولماذا هذه الحرارة في الوعد، ثم في الاستغفار؟! تساءل شيخنا، بعد أن طفح كيل الرجل بما فيه من خَبْثٍ وخَبَثٍ. عاد يكتب المسكين، بالعربية لأنه يعلم أن الكتابة بالعامية (التي يسميها المصرية، فيمزق اللغة على عدد لهجات الشعوب المسلمة!) لا تُنتج إلا ساقطاً من القول، وقد اراد أن يحتفظ لنفسه ببعض تواجد بين المتعلمين ليمكنه دسّ السم بينهم.

(8)

وأستاذ ذاك الوقح لويس هو رجلٌ قبطي مصري آخر، أشد وقاحة وشرّاً، اسمه سلامة موسى. وهذا القبطيّ هو من قاد الهجوم على العربية قبل لويس بعقود. انظر إليه يقول "ينبغي أى لا يُغرس في أذهان المصري أمه (شرقيّ)، فإنه لا يلبث أن ينشأ على احترام الشرق وكراهة الغرب، وينمو في كبرياءٍ شرقيّ، ويحس بكرامة لا يطيق أن يجرحها أحدٌ من الغربيين بكلمة". ثم يقول "الرابطة الشرقية سخافة، والرابطة الدينية وقاحة، والرابطة الحقيقية هي رابطتنا بأوروبا!"[15].

فهل رأيتم شيطنة مثل هذا اللعين؟ الغريب، أنه أولاً، يعلن ارتباطه بأوروبا، وليس ثمة ما يربطه وقومه بها إلا دينهم! فحلال عليه احترام رابطة دينه، حرام على المسلمين، بل وقاحة منهم، ارتباطهم بدينهم. ثم ثانياً، فإنّ هذا المغفل، يعلم أن المسيح عليه السلام شرقيّ محض! فلناذا يُسلم قياده لغربيّ، إلا إحساس النقص والسقوط والصغار، الذي لا يفارق نفس هؤلاء البشر.

---

14 السابق 146
15 أباطيل وأسمار ص 148

ويرجع تاريخ الدعوة إلى تبني اللغة العامية، أو المصرية كما يسميها لويس، قبل سلامة موسى، إلى قرنينٍ من الزمان في مصر، كما ذكرنا. وجاء بعد بعثات التعليم، تقرير لندبرج في ليدن عام 1883، ثم تقرير اللورد الإنجليزيّ المحترق (بتعبير شيخنا)، ثم أمين دار الكتب الألماني في مصر، ثم ولمور القاضي الإنجليزي بالمحكمة المختلطة، ثم ولكوكس، المهندس المبشر المقيم في مصر، والذي وصفه التالف سلامة موسى "والهم الكبير الذي يشغل بال السير ويلكوكس بل يقلقه، هو هذه اللغة التي نمتبها ولا نتملمها"[16]**!**. سبحان الله، وما الذي يجعل هذا اللورد المبشّر يقلق على لغة المصرين، وكتابتهم، إلا هدم لغة القرآن الكريم**!؟**

ثم يبيّن الشيخ العلامة أن أوروبا رأت أن العالم كله، شرقيه وغربيه يتكلم لغات شتى، إلا الرقعة الإسلاميةظن فقد حفظ لها القرآن، بلغته العربية، وحدة لا تزول، مهما تغيرت عاميتهم. فجاء الاستشراق ليدرس تلك الظاهرة العجيبة، ومن ثمّ يجنّد عملاءه لهدم هذا الصرح العظيم، وقطع ذلك الحبل المتين. نقل العلامة الشيخ شاكر قول وليم جيفورد بلجراف "متى توارى القرأن ومدينة مكة، يمكننا حينئذ أن نرى العربيّ يتدرَّج في سبيل الحضارة (يعني الحضارة المسيحية)، التي لم يبهده عنها إلا محمد (صلى الله عليه وسلم) وكتابه"[17].

(9)

وكما ذكرنا، فإن غفلة محمد على أدت إلى سيطرة المستشرقين على مناحي التعليم وغيره، ثم جاء رفاعة الطهطاوي، وهو مبتعث أزهريّ إلي فرنسا، بغفلة يسيرة أو شديدة (بكلمات الشيخ شاكر) فوضع كتاباً، غير كتابه المشهور "تلخيص الإبريز" اسماه "أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوفيق بن إسماعيل" دعا فيه بسذاجة شديدة لتبني العامية وإنشاء بعض قواعد تضبطها**!** ويشك الشيخ شاكر ظان هذا كان بإيعاز من شيطان فرنسيّ، لمح إعجاب الطهطاوي بتقدم الفرنسيس مع محبة لتقدم بلاده**!**[18].

[16] السابق ص 147
[17] السابق 158
[18] السابق 159

وكان أن قيّض الله رجلين عظيمين، عقب بدأ افتتاح المدارس الثانوية في مصر، توليا إعادة القوة إلى العربية وإحياءها من كبوة قرون التخلف، هما الشيخ الأديب حسين المرصفي ومجدد الشعر العربيّ محمود سامي البارودي.

وقد ردد نفس هذا الموال الخبيث من يُعى "ولهلم سبيتا" المستشرق في مصر، ونسج علي نفس منوال من جاء قبله، ونسج سلامة موسى ولويس عوض، بل ومدير مصريّ في الأمم المتحدة واسمه عبد الحميد عبد الغني، على نفس المنوال![19].

ثم انتقل الأمر إلى جريدة المُقتطف الإنجليزية التوجه والولاء، فنادي بكتابة العلوم بالعامية، فقام خليل اليازجي الكاتب النصراني اللبناني بمقاومة هذا التوجه والتصدي له. وتوالت الدعوات بعدها، سواء من سبيتا، أو من كارل فولرس، ذيل ويلكوكس، وسلدن ولمور، بل حتى بعض العرب مثل عبد العزيز فهمي باشا، وكن رئيسا لحزن الأحرار الدستوريين الموالي للإنجليز.

وكان من أشد النكبات هو تعيين دنلوب سكرتيراً عاماً للمعارف، فتعاون مع اللورد كرومر في عملية الهدم المنسقة للغتنا العربية الفصحى. وقد عمل دنلوب عملاً شاقاً ماكراً ليوجّه الشباب إلى ترك الفصحى، فعين من يتعلم منهجه في الدواوين الحكومية واستبعد خريجي الأزهر، ورفع مرتبات المدرسين إلا مدرسي العربية![20] حتى ذكره أحمد شوقي في قصيدته الشهيرة

قم للمعلم وفّـــــه التبجيلا *** كاد المعلم أن يكون رسولا

حيث يقول

ما كان دنلوبٌ ولا تعليمه *** عند الحوادث يُغنيان فتيلا

---

[19] السابق 163

[20] الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، د رضوان أحمد الشيباني، ص 51، مطبعة مدبولي 2006، وهو كتاب جدّ مفيد.

(10)

ويفصح الشيخ شاكر، في المقالة التاسعة "وهذه هي أخبارُها"، عن أصل النكسة التي مُني بها عالمنا الإسلامي، وهي أصل قضية العامية والفصحى، وهما فرعاها، ألا وهي قضية "التبشير".

والتبشير يُقصد به إزالة أو هدم، أو حتى زعزعة، عقائد المسلمين، وإحلال الفكرة النصرانية، أو حتى القبول بها كفكرة مطروحة عن الخلق والخالق، لا تتعارض مع الإسلام! وقد صرح بذلك القس المُبشر "زويمر" في مؤتمرٍ عقده داخل بيت أحمد عرابي! عام 1906 بعد أن عاد من منفاه، وطُرد من بيته، بغرض إنشاء معهد مسيحيّ في مصر، فقال القس المبشر "ربما كتنت العناية الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا، لنشرع بإنشاء هذا المعهد المسيحيّ لتنصير الممالك الإسلامية"[21]. هكذا بكل وضوح وصفاقة.

وقد قامت حركة التبشير، وقويَ عودها في الفترة بين 1863، و1882، في مصر والشام خاصة، وغيرها من بلاد المسلمين. واستخدم المُبشرون كلّ حيلة لبثّ أفكارهم التي تخدم التبشير، عن طريق التعليم، وفرعه استبدال العامية بالفصحى. حتى أنّ جريدة المقتطف، نشرن مجلدها السادس لعام 1881، في طبعتين، حذفت من أحدهما كلّ ما دار من حوارات بين من اسمى نفسه "الممكن"! في بث فكرة الكتابة بالعامية، وتأييد سليم اليازجي له، وما كتب أسعد داغر وبعده ردود "الممكن" هذا. فخرج المجلد في طبعتين متباينتين، مختصرة ومطوّلة![22].

ثم يقطع على شيخنا سلسلة فكره، الذي يوجعه مقالاته المتتالية، ما كتب أحد نقاد الأدب المعروفين، وهو د محمد مندور، يُلحي على الشيخ شاكر ما اتهم به لويس، ويحذّر من مغبة المعارك "غير النظيفة"! التي تثار فيها النعرات القومية والدينية، هكذا كتب في الصحيفة اليهودية المنشأ والملكية، روز اليوسف.

[21] أباطيل وأسمار ص 194، وقد تمخض هذا العمل عن إنشاء الجامعة الأمريكية بمصر، بعد أن أنشأت "الكلية السورية الإنجيلية" في سوريا، ثم تحولتإلى الجامعة الأمريكية هناك
[22] السابق ص 192

(11)

ومحمد مندور، رغم إعراض الشيخ شاكر عن ذكر خلفيته، على كونه صاحب آثار جيدة في النقد الأدبيّ، هو صنيعة من صنائع الأدب الفرنسي نفسه، وخرّيج لمعاهد فرنسا، كلويس عوض. فلا أرى غرواً في أنه نافح عن لويس دون أن يقرأ ما كتب، بل اقتنع بما يروّج لويس عن مظلمته التي أحلّه فيها الشيخ شاكر، حين فضح جهله وتقمّمَ فكره.

وقد كانت زلّة مندور، بل خطئته النكراء، هي ما نقله عنه شيخنا، قوله "وأكثر خطراً وضراوة وضرراً من تهمة الخروج على القومية العربية، ممثّلة في الإكار التقليديّ للقصيدة، تهمة الخروج على الإسلام، بدعوى ظان هذا الشعر الجديد يستخدم أحياناً ألفاظاً كثيرة التردد في دين كرين، يعترف به الدين إسلاميّ نفسه! كالدين المسيحيّ، مثل لفظة "الخطيئة"، ولفظة "الخلاص"، ولفظة "الصلب"، فهذه تهمة غبية، ونحن المسلمون، نعتبر الديانات السماوية جزءاً من تراثنا الروحيّ، بل جزءاً من التراث الروحيّ للبشرية جمعاء"[23].

وهذا الذي قال، لو خُلط بماء البحر لأنجسه، فكيف يكون تراث النصرانية أو اليهودية من تراثنا الإسلامي الروحاني؟ هذا كلامٌ أخرق لا ينفع إلا في الدعايات الصحفية الرخيصة. فلكلٍّ تراث لا يختلط بغيره، وإلا فقد هويته. وكأني أسمع "على جمعة" أو "أحمد الطيب" أو "الهلالي" يتحدث على لسان مندور منذ قرابة نصف قرن!

وقد بيّن شيخنا الهذر والنفاق والخلط الشنيع في المفاهيم، فلخّص الأمر فيما قال:

1. إن تراثنا الروحيّ لا يعترف بتراث النصارى ولا اليهود ولا غيرهم، كجزء من تراثنا، وإلا كان الكفر والنفاق والهرطقة. وللنصارى أو اليهود أن يعتزوا بتراثهم، لكنهم قطعا لا يعتزون بتراثنا نحن المسلمين.
2. أن تلك الألفاظ، التي ذهرها الشيخ شاكر، في معرض حجديثه عما يسمونه الشعر الحديث أو العاميّ، هي أربعة "الخطيئة"، و"الفداء"، و"الصلب" و"الخلاص"، بهذا الترتيب. وكلّها تحملُ معان محددة في اللغة، وفي الفهم الإسلاميّ، وفي القاموس النصراني وتراثه.

[23] السابق ص 206

3. فالخطيئة، عند المسلمين، هي الذنب، وهي الإثم وهي الحوب، وهي الحرام، وهي معصية. فلنا التركيز في ذاك الشعر على لفظ الخطيئة، الذي يعني في التراث المسيحيّ خطيئة آدم الأولى، والتي حمل وزرها، هو وذريته من بعده إلى أبد الآبدين. فالمولود عند النصارى، لا يولد على الفطرة السوية، بل يولدُ حاملاً لخطيئة أبيه آدم، خلافاً لقول الله تعالى "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ" فاطر 18.
4. ثم يتدرّج الأمر، من مفهوم الخطيئة، إلى "الفداء". فإن رحمة الخالق تريد أن تعفو عن الإنسان من جريرة خطيئته، التي لم يرتكبها!، فلا يجد الخالق جلّ وعلا إلا أن يُقدّم فداءً لائقاً يرفع به تلك الخطيئة، وهو جزء من ذاته سبحانه، أو "ابن الله" تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، فيرسله في شكلٍ ناسوتي، خلافاً من طبيعته اللاهوتية[24]، ثم ينتقل إلى "الصلب"، الذي هو نتيجة الفداء، ثم إلى "الخلاص" الذي به يتحرر المسيحيّ به من خطيئة أبيه آدم، إن قبل التعميد، وأنّ المسيح هو المُخلّص، وإلا بقيت الخطيئة، التي لم يرتكبها معلقة برقبته، إلى أن يدخل بها جهنم أبد الآبدين[25]!

فتلك المفاهيم، لا تصلح في دين المسلمين، ولا يصح تداولها إلا بالمفهوم اللغوي المحصور، لا بالمعنى الكنسيّ عند النصارى. لكن صفار الشعراء، الذين اتبعوا المستشرقين، بعد أن وجدوا أن استعمال هذه الكلمات، التي قيل لهم إنها "رموز إنسانية"، تفتح لهم أبواب المِنح والصحف والشهرة، فتساقطوا كذباب حول قمامات الطريقّ!

(12)

يستمر شيخنا في مقاله العاشر "وهذه هي أخطارها .."، فيبيّن الطرق الثلاث التي يتبعها الغازي الغربيّ الصائل، منذ بدأ حملته على عالمنا الإسلاميّ، بعد أن ظهرت قوة العثمانيين

---

[24] وهي نقطة لم يُحسم فيها الجدل بين فرق النصارى إلى اليوم عن طبيعة المسيح اللاهوتية وطبيعته الناسوتية، هل هما طبيعتان ومشيئة واحدة، أم طبيعتان ومشيئتان، أم غير ذلك!

[25] وأود أن أشير هنا إلى أن هذا الهراء هو كلّه من صنع مجمع نيقية، في عهد الإمبراطور قسطنطين، عام 325 م، وهدفه، هو توثيق العلاقة بين السياسة والكنيسة، أو الامبراطور والبابا، فربط المسيحيّ بالكنيسة من يوم ميلاده إلى يوم وفاته، يكون عن طريق، إيجاد صيغة كنسية، يُعطَى فيها البابا صكّ التلقي عن الله، ويمنح البابا حق الخلاص والعفو للراهب الكنسيّ، فيُعمّد المولود، ثم يسمع اعترافات المسيحيّ طول حياته، فيغفرها له، من حيث إنه مغفور له أصلاً من يوم تعميده! وبهذا أصبحت الكنيسة الرومانية أقوى مؤسسة استغلالية على الأرض لقرون عديدة، بل لها أثرها السياسي والأدبي إلى اليوم، حتى جاء مارتن لوثر، فرفض دور القسيس، وأحدث شرخاً كبيراً في البناء الكنسيّ من وقتها. اقرأ ما كتب
"The Malte Exchange" by Steven Berry, p336 - 340"

عليه منذ القرن الخامس عشر. فبعد أن طوّق العالم الإسلاميّ بحرياً، بدأ في استعمال الغزو التجاريّ، ثم الغزو العسكري، ثم الغزو التبشيريّ، وهو أخطرها وأشدّها فتكاً بالأمة. وكانت وسيلته التعليم، وأداته صرف الناس عن العربية الفصحى إلى العامية.

ثم طرح الشيخ على القارئ ما ذكره "أرنولد توينبي" في كتابه "الإسلام والغرب"، مما وافق فيه ما ذكر الشيخ شاكر، على غفلات في فكره الغربيّ المسيحيّ، لكنه كان صادقاً، واضحاً، في وضع نقاط ضعف الحروب الصليبية، وما عانته أوروبا على يد المفهوم الإسلاميّ للأخوة في "الدين"، واستعمال اللغة "الدينية" كما أسماها، لغة واحدة، حتى إنه حذّر من تفتيت الوحجة "العربية" إلى قوميات، كما حدث مع العالم الغربي، قال "فهل من الضروري أن يُجزأ هذا العالم العربي إلى عشرين دولة مستقلة، تعيش بعزلة تامة عن بعضها البعض؟ وهل من الضروري حقيقية أن نرى العالم العربي يتفكك ويتجزأ، كما حصل مع الأسف للإمبراطورية الأسبانية الأمريكية؟ إن هذه التجزئة تعنتر من أخطر نقائص حضارتنا الغربية، وسيكون مؤسفاً حقاً أن نرى الشعوب العربية تنسج على منوالنا في هذه الناحية"[26].

هذا كلام مؤرخ إنجليزي مسيحيّ غربيّ، ينصح نصح المؤرخ العاقل، وإن شاب فكره ما شابه، مخالفاً للدعوات السافرة الفاجرة، التي بدأت بأتاتورك، فسلخ تركيا من الجسد المسلم بقومية رخيصة الثمن، ثم استدارت تلك الدعوات لتؤسس دويلات وصل عددها 24 دولة هامشية لا قيمة لها.

والحق، فيما قال الشيخ شاكر، أن اللغة القرآنية ليست لغة "دينية" بالمعنى الذي يفهمه توينبي أو غيره من المفكرين الغربيين. بل هي قالبٌ صيغ فيه نمط حياة كاملة، دقيقها وجليلها، خطيرها وصغيرها. وقد استُحدثت علومٌ فريدة في بابها بين علوم الدنيا، استُنبطت بها، من تلك اللغة وذاك اللسان، منهج الحياة وقواعد الحضارة التي قادت الدنيا قروناً عديدة. وهي لا تزال قادرة، بالقوة الكامنة فيها على قيادة البشرية مرة أخرى، من حيث أن كلام الله سبحانه قد تنزّل بها، وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم، قد بيّن مجملها وفصّلها تفصيلا.

ولا يمكن لصبية غرٍّ مثل سلامة موسى ولويس عوض وغيرهم من العملاء النصارى المتدسسين، أن يذرعوا في حدائق تلك اللغة بذورا مسمومة، في شكل ألفاظ منتقاة بعناية،

---

[26] أباطيل وأسمار ص 232. ولم أتمكن، كما لم يتمكن الشيخ شاكر من الحصول على الأصل الإنجليزيّ لهذا المُدوّن.

تحملُ معانٍ محددة في الفكر المسيحي التبشيري، يسمونها "رموزاً" إنسانية، ليخربوا بها أفكار أجيال المسلمين، ويصرفوهم عن عقيدتهم ولغتهم.

(13)

ثم يتعرض الشيخ شاكر بعدها، في مقاله "وما أدراك ما هي ..!)، لشخصية من أهم الشخصيات التي أعانت على هدم الدين ومحاربته، وهو أحمد لطفي السيد[27]، علمانيّ بحت، أُشرب في قلبه حبّ علوم اليونان، وكتب عن أرسطو ومنطقه، وكان أباً روحياً لملاحدة عصره مثل طه حسين، وهو يُعتبر ، من وجهة نظري الشخصية، (أفغاني مصر) نسبة إلى جمال الدين الإيراني المعروف بالأفغانيّ.

وكانت سموم لطفي السيد أكثر تدسساً من حيث إنه صبّها في قالب حبّ الإسلام، والحرص على العربية**!** فاقترح أن يتخيّر الكتَّاب والشعراء والأدباء ألفاظاً عامية، يعيدون صياغتها لتصلح أن تكون من العربية، ثم إضافتها للقاموس العربيّ**!** وكأن العربية تنقصها الألفاظ التي تحمل المعاني في قوالبها. وذاع صيت هذا الرجل، وعلت مكانته حتى أسموه "أستاذ الجيل"، وكذلك "المعلم الثالث" يقصدون بعد أرسطو وابن رشد.

ثم يعود شيخنا لجريمة جديدة[28]، سخّر فيها صبيّ التبشير، صاحب "الخلوة المشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكمبردج**!**"، أجاكس عوض، من خلال منصبه الذي أتاحته له كبرى صحف العرب في زمننا، الأهرام، حيث قر نشر "دائرة معارف"، ثم أوكل لصبيّ مسلم من صبيانه، د محمد أحمد خلف الله[29]، حيث كتب عن سيدنا يعقوب عليه السلام ما يشين، من إنه احتال على أخيه الأكبر "العيص" ليسرق منه مركزه "الديني"، بشراء "حقّ بكوريته"، وبهذا أصبح مستودع أسرار السماء ومُتلقي بركاتها**!**

واستخدام تلك الألفاظ، التي جاءت في الإسرائيليات، مُشَوِّهة لمعنى النبوة، ولسيرة نبيّ كريم، نقر بنبوته ونُجلّه عن التحيّل الرخيص الساذج، يرسم لك هدف حملة فتى الخلوة المشهودة من

[27] السابق 262
[28] السابق 276
[29] ومحمد احمد خلف الله شيوعي ماركسي علمانيّ، كان يعمل نائبا للويس عوض، وكان عضوا في حزب التجمع الشيوعي الذي أسسه خالد محي الدين عام 1976.

تبديل لعقائد المسلمين، والتلاعب بأفكار قرّاء الصحف، التي باتت تحت سيطرة المبشرين والمستشرقين، بعلمِ عالمٍ، تولى تدبير ذلك الجهد الهدّام.

(14)

ولمّا كان قصد شيخنا محمود شاكر هو كشف الزيف وفضح التآمر، الذي بزغ في سماء رقعتنا الإسلامية، بفعل الاستعمار، والتبشير، والاستشراق، ثلاثة الدواهي التي ضربت عالمنا الثقافيّ والفكريّ، واستولت على الصحافة والتعليم، وهما مصدر وعي الأمم، فسمحت لغرٍّ مثل لويس عوض، وغيره ممن ذكرنا أن ينشروا ما ينشرون، غير عابئين بمغبة أقوالهم، ولا مكترثين بلومٍ أو تقريع!

ويكشف الشيخ، في مقاله (نارٌ حامية ..) عن كاتب (مسلمٌ) آخر، تلوّن بلون لويس، وهو أستاذ جامعيّ ايضا، اسمه زاهر رياض. وقد كتب هذا الرجل، وهو مٌدرس يعتني بالدراسات الإفريقية، زعم! كتاباً سمّاه "الإسلام في أثيوبيا، في العصور الوسطى، مع الاهتمام بوجه خاص بعلاقة المسلمين والمسيحيين".

وفي هذا الكتاب، يدعى الرجل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يخالط فتيان "العرب"، بل كان يخالط أهل الكتاب من نصارى الحبش، الذين عاشوا في مكة، وتعلم منهم ومن قساوستهم! بل إنه قد علِمَ عن عدل النجاشيّ، من "أم أيمن"، وهي أم أسامة بن زيد، حين كانت ترعاه صغيراً، وتروي له قصص الحبش، فيتأثر بها ويتطبّع بطباعهم!

ثم يدّعي، زورا وبهتاناً، أغنياء قريش رفضوا دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها هددت ثرواتهم! وهو كذبٌ محضٌ لا أثر له في قرآن ولا سنّة ولا أيّ رواية سيرة أو تاريخ! وأن خبر إسلام النجاشي الأول ليس صحيحاً، وأن اسم ملك "أثيوبيا"، كما يسميها في كلّ كتابه، لا الحبشة!، لم يكن "أصحمة"، رغم ما ورد في حديث البخاريّ. كما يدّعى أن كتاب النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد فُقد مع مبعوث النجاشي، وهو ابنه الذي أرسله في ستين رجلاً، فس سفينة، غرقت في البحر الأحمر، ثم اخترع مؤرخو الإسلام، كابن سلاّم الجمحيّ، وابن اسحاق، والطبري، كتاب النجاشيّ!

هذه عينة أخرى من أكاذيب وخلطٍ متعمدٍ، كان يجري في أروقة الجامعات المصرية، بل على صفحات جرائدها الشهيرة. وكلها، عبثٌ في عبث. فأم أيمن لا يمكن أن تكون قد أدركت عهد النجاشيّ الأول، وعرفت عن عدله، إلا إن كان عمرها أكبر من خمسة عشر عاما على أقل تقدير، ثم استرقّها عبد المطلب في عام الفيل، سنة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم عاشت بعدها أربعة عشر سنة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي كان عمرها في سنة وفاتها (15+63+14 = 92 عاما). ثم إنها ولدت أسامة، الذي كان عمره سبعة عشر عاما حين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم! أي إنها ولدته وهي في سن الواحد وستين عاما! هذا ضربٌ من الوهم والتخييل. فالأصح، المبنيّ على دراسة التاريخ بعقل متزنٍ، هي أنها كانت طفلة لا تزيد عن الخامسة من العمر، فجاءت مع أمها في عام الفيل، ثم ماتت أمها في الغزوة، وأخذها عبد المطلب، فوهبها لابنه عبد الله، والد رسول الله صلى الله عليه وسلم. لكنه الهوى والتفاني في خدمة التبشير، وادعاء العلم بمخالفة المعروف الموروث الصحيح المستقر.

(15)

وفي مقال "أم على قلوب أقفالها"، يعجب الشيخ من تلك البذاءات والترهات، التي يبثّها عنه الملعون لويس عوض، شفهياً، حيث لا يجرأ على تدوينها، لما يعلم ما سيلقاه من إهانة وتسبيخٍ من الشيخ. فالرجل يدور على حلقات القوم، بأقوال مثل :الفتنة الدينية"، "العصبية القومية"، تلك التي يزعم أن شيخنا يثيرها ويؤجج نارها! يعجب العلامة شاكر من حيث لا يدري ماذا يتوقع هذا الحرفوش؟ أيتركه الشيخ يعبث في تراثنا ويلوك بحامض لعابه الفكريّ قيمنا وحرصنا على ثقافتنا ولغتنا؟ كيف وهو يراه، لا يزال بعد كلّ ما فضحه فيه، يسترسل في كتابة أعمدة على الصحيفة التي تبنّت هراءه وعبثه، الأهرام.

ومن ذلك العبث ما نشرته الصحيفة من إطراءٍ عجيب على كتاب، لم يعثر عليه الشيخ! يدّعي فيه أن المسيحيين في مصر يمثلون 33% من السكانّ! بل يقول بكلّ تبجحٍ "وتعداد الأقباط يربو على الثمانية ملايين، يدينون بالمسيحية، ويؤدون شعائرهم الدينية باللغة القبطية، رغم أن الغالبية العظمى لا تتكلم بها، ويحافظون على كثيرٍ من عاداتهم وتقاليدهم، رغم مشاركتهم

المسلمين في التكلّم بالعربية، ورغم وقوعها تحت الحكم الإسلاميّ 13 قرناً"![30]. ولو قال "تحت الاحتلال الإسلامي" لكان أقرب لحقيقة ما يعتمل في صدره الموتور.

أن لم يكن هذا الكلام تأجيجاً لفتنة دينية، فكيف يكون إذن تأجيجها؟! بالدفاع عن ثقافتنا وديننا وتعليمنا وصحافتنا وعقليات أبنائنا؟

(16)

ثم في مقاله التالي "وأقول نعم"، يحكي رواية مؤسفة جرت لأحمد عرابي، بعد عودته من المنفى، حيث دخل عليه بشارة تقلا، أحدد محرري ومؤسسي الأهرام، وقد كان من قبل يشيع أنه مع الثورة وحرية الوطن، فإذا به يسبّ عرابي بأقذع الألفاظ، ثم يبصق في وجهه!!! تلك هي الحمى الدفينة في صدر أبناء التبشير، ولو حلفوا ألف مرة بالوطنية وعشق البلاد.

ثم يبدأ العلامة في الحديث عن مقالات جديدة، بدأها لويس عن الشاعر "بدر شاكر السيّاب"[31]. وبطبيعة الحال، فإن الجاهل جاهلٌ أينما حلّ وارتحل، فكريّاً. فقد راح يفسّر بعض أبيات شاكر السياب بجهلٍ للقصد والرمز، تماما كما فعل في تفسير "وردة كالدهان" في القرآن وفس شعر المعريّ ب"الروزا مستيكا!".

بل يهلوس الشرلتان لويس، بفعل ما في نفسه من حقدٍ على الإسلام وتاريخه ولغته وشعره، فيُعرِّض بقول شوقي "رمى القضاء بعيني جؤذر أسداً"[32] وبقول ابي تمام "السيف أصدق أنباء من الكتب"! على أنهما يمثلان الشعر الكلاسيكي الذي "كسر رقبته" من قبل!

ويبيّن شيخنا أن قصيدة شوقي كانت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، فكان تعريض لويس بها مفضوحاً، وأن ما ذكر الهَمَلَ، مستشار الأهرام الثقافيّ! عن بيت أبي تمّام، لا دخل له بمبادئ أخلاقية تبعث على العنف، كما زعم الشرلتان، بل هي ردّ على ما كانت الكهنة يرددون

---

30 أباطيل وأسمار ص 334

31 وهو شاعر عراقيّ وُلد عام 1926، وتوفي شاباً في الثامنة والثلاثين من عمره. وكان قد بدأ كلاسيكيا، ثم ابتدع مدرسة في الشهر الحر رغم عدم إهماله للوزن والقافية، تأثر فيها بالشهراء الغربيين مثل إليوت. وكان ماركسياً غالب حياته، ويميل للهو والمجون. ويذكرني، في معاناته الاجتماعية بالشاعر عبد الحميد الديب.

32 تتمة البيت "رمى القضاء بعيني جؤذر أسدا ** يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجَمِ" وهو البيت الثاني في قصيدته نهج البردى التي عارض بها بُردة البوصيري

من أن غزو المعتصم لعمورية، انتصارا للمرأة المسلمة، في الشتاء، سيكون نتيجته الهزيمة كما في كتبهم! وكان فتح الله عليهم أصدق من تلك الكتب الكهنوتية الكاذبة[33].

(17)

ثم يظهر في الصورة القاتمة علمانيّ آخر، كاتب مسرحيّ شهير، وعضوٌ في مجمع اللغة العربية، هو توفيق الحكيم.

ويزعم الأستاذ توفيق بأن تلك المعركة بين دعاة الفصحى وأنصار العامية لا أساس لها في الوجود أصلاً، من حيث إن العامية هي الفصحى، بلا فرق، إلا بعض تحلل من قيود الإعراب، وإبدال بعض الحروف مكان بعضها، كالهمزة محل القاف، كما في "حقيقة" و"حئيئة"، والسين محل الثاء، كما في "ثُمّ" و "سُمّ"! هكذا، حلّ توفيق الحكيم، وأجدر أن نقول: تلفيق الحكيم، المشكلة المصطنعة، بجرة قلم. فما لهؤلاء القوم يقيمون الدنيا ولا يقعدونها على بعض حروف مبدّلة، هي من حروف الهجاء أيضاً. بل حَكى عن السلف، غير واعياً بأصل القصة، أن هناك من قال "سَكِّنْ تَسلمْ"، أي ضعْ السكون في آخر الكلمات، تسلم لك اللغة صحيحة! وهذا جهلٌ وتدليس، كما بيّن الشيخ شاكر. فالقصة أن رجلاً قام خطيباً، فظلّ يلحن في كلامه، فيصححونه، ثم يُلحن، فيصححونه "فلما ضاق سامعه به قال: سكّن تسلم"[34].

وقد تعقب شيخنا تلفيق الحكيم، بتفكه وظرفٍ وسخرية، يجعلك ترثي لحال الحكيم، فقال إن العيب على الشيوخ القدامى الذين علمونا أنّ الخطأ في الإعراب جهل لا يليق بكاتب، ولا خطيب، وأن اعتدال اللسان ليس من البيان!

(18)

ثم تناول العلامة في مقالته "أمّا بعد .."، كاتباً يسارياً آخر، وإن لم يكن على مستوى الحكيم، اسمه محي الدين محمد، وهو كاتب يساري "اشتراكيّ" أيضاً، حين كانت صفة "الإشتراكية"، وسامٌ على كتف السفهاء والتوالف من البشر.

[33] أباطيل وأسمار ص 345
[34] السابق 360

وقد كتب هذا الرجل مقالاً، يُمَجِّد فيه "رواد" الجيل الماضي من المجددين في الفكر والثقافة، مثل سلامة موسى واسماعيل مظهر[35]، ثم من جاء بعدهم من تلامذتهم العظام مثل لويس عوض! ممن حملوا لواء الفكر التجديديّ الذي يدرس تراثنا بعين ليس هي عين القدماء، بل عين الفكر الحضاريّ الغربي المثقف! ونعى أشدّ النعيّ على "الكتبة الصغار" الذين يكتبون في مجلة الرسالة (يقصد العلامة محمود شاكر!!)، فيسبون ويهينون أولئك الرموز الحداثية المُبدِعة، بضيق أفقهم، وانغلاق عقولهم، وتخلف فكرهم، دون أن يقرعوا الحجة بالحجة والبرهان بالرهان!! ووالله لا ندرى، ولم يدرى شيخنا، عمّا يتحدث هذا العيّ المتنفّخ!؟

إن كان أحدٌ قد تنكَّب عن قرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، فهم أولئك الموتورون الحاقدون على تراثنا ولغتنا وحضارتنا وديننا، المتشبثون بتلابيب حضارة ساقطة لاأخلاقية، مزيفةٍ، هي مزيج حضارات بادت كلها، وتركت خبائثها ورذائلها وفضلاتَها لتكوّن ما أسموه حضارة الغرب الحديث، وكأنما الحضارات تُبنى بالريموت والإنترنت، لا بالخُلُق والقِيّم والشرف.

يقول هذا المسكين الغافل "ولقد أصبحت الأقلام الرجعية في مجلة الرسالة ممثلةٌ لنوعٍ من أنواع الرقابة الداخلية، أو الضمير الكاذب، على ما يكتبه المتحررون واليساريون والاشتراكيون، وإنها لمصيبة يجب بترها قبل أن تستفحل وتصبح داءً عُضالاً"[36]. ثم يقول، بلا حياء: "وهكذا وقعنا في يد النصَّابين (يقصد العلامة محمود شاكر!) الذين يتكلمون باسم الفكر والثقافة"! ويقول: "الشتائم التي نقتطف منها هنا، آسفين، بعضا منها موجهة لأستاذ جليل طالما علَّمنا وعرَّفنا"[37]!! (يقصد لويس عوض!)، أي والله بهذه الحروف ..

ويجيب العلامة شاكر، في بعض ما يجيب "أما أستاذك الذي علَّمك، والذي لا يستحي، والذي يتعاقل بعقل المُبشرين، فقد جاء من طريق هو أخفى من طريقك، ولبس لباس "المعلم يعقوب" التالف القديم، قبل أن يصير جنرالاً بتسمية نابليون، وحمل دواة وقلما وطُوماراً، وترك التقَعّر "الإليوتي" جانباً، فنشر جداول الحساب بالزنكوجراف أيضا في الصحيفة الأدبية منذ أسبوعين في جريدة الأهرام، وسمّاها "كلمة هادئة عن التأليف والترجمة والنشر"مرة، و "كلمة هادئة

[35] السابق 375
[36] السابق 377
[37] السابق 378

عن مجلات وزارة الثقافة" مرة أخرى، (والتسمية وحدها دالةٌ على أنه يريد بعد طول احتجابه، أن يظهر للناس وقوراً عاقلاً متماسكاً متمالكاً لقواه)، أستاذك هذا كانت أهدافه ظاهرة معروفة، لمن يُحسن أن يكشف عن طبائع الضرْب المدرَّب من أدوات التبشير ودُمَاه المُتحركة في عالمنا هذا منذ قرن ونصف"[38].

ثم وفي علامتنا بوعده، في خلال المقال، أن يشرح أبياتٍ رائعات، استشهد بها في موضعين، أولهما للملك جذيمة الأبرش الوضّاح، [39] منها:

ربّما أوَفَيْتُ على عَلَمٍ ** تَرْفَعَنْ ثَوْبي شَمَالاَتُ

في فُتُوٍّ أنا كَالِئُهُـــــمْ ** في بلايا غَزَوَةٍ باتـــوا

ليت شعري ما أماتهمُ؟ ** نحنُ أدْلَجْنَا وهُمْ باتوا

وفي موضع آخر، أبيات سلمى بن ربيعة الضبيّ[40]، منها

إن شِـــــــــواءً ونشوةً ** وخَبَبَ البَازِلِ الأمـــــــــونِ

والبيض يَرْفُلْنَ كالدُمى ** في الرِّيط والمُذهَّبِ المَصونِ

من لذة العيش ، والفتى ** للدَّهـــــرِ، والدَّهْرُ ذو فنونِ

38 السابق 385

39 السابق 386، وجذيمة الأبرش كان ملكا على قضاعة، وأرض العراق. وكان شجاعاً فارساً غازياَ، والأبرش هو لقبه لأنه كان به برص، وخاف الناس أن يقولوا الأبرص، فقالوا الأبرش والوضّاح. وهو يرثي في هذه الرائعة كتيبة له، أغار عليهم عدوٌ فقتلهم. أوفى: يعني أشرف عليه من أعلاه، شمالات: هي جمع ريح الشمال، ليدل على شدتها، التي ترفع ثوبه مهما حاول ضمّه. الفتوّ: جمع فتي كفتيانٍ، كالئهم: أي حارسهم في إبّان الغزو. ثم يتسائل في حزن شديد: ماذا حدث لهم؟ نحن خرجنا وسرنا ليلاً مُدلجين، وهم باتوا، فماتوا.

40 السابق 390. وسلمة بن ربيعة الضبيّ شاعر جاهليّ، له من الولد من وُلد في الإسلام. النشوة: هي أول لذة الخمر، والبازل الناقة البالغة القوية، والأمون: التي استوثق خَلقُها فأمنت من العثرات. والخبب: الجري السريع. البيض: الناس العواقل صاحبات الشرف المصون، الريط: اللباس، والمذهّب: المصنوع من الذهب. يقول أن هذه الملذات واللهو من لذات العيش، وهي التي يختلسها من الدهر. ثم يستأنف جملة هي حكمة، أن الدهر ذو فنون، أي متقلب الأحوال.

(19)

ثم يأتي مقال "أمهلهم رويداً"، بعزاء وعجيبتين. أمّا العزاء فقد كان في وفاة الناقد محمد مندور. وقد أبدع الشيخ في مقدمة أوضح فيها كيف تنشأ العلاقة الأخوية والصداقة الصفية، والغربة بعد اللقاء، ثم اللقاء بعد الغربة. فحال الدنيا إلى افتراقٍ واجتماع، لا تُقرُ أحدٍ على حال.

ما أسرع الأيام في طيّنا ** تمضي علينا وتمضي بنا

في كل يوم أملٌ قد نَأى ** مَرَامُه، عن أجلٍ قد دنا

أنذرنا الدهرُ وما نرعوي ** كأن الدَّهر سوانا عنا

أبيات رائعة للشريف الرضي، ناسبت ما يقول شيخنا.

ثم يترحم[41] على مندور، وعلى بقية من ذهبوا من خلّانه وأحبابه، من جيله قبل أن يلقاه فيؤانسه ويشاطره المجلس كما كان في الأيام الخواليّ.

(20)

ثم العجيبة الآولى التي عرضها، هي ردّ على رسالة كتبها الأستاذ حمزة دعبس، وكيل نيابة المخدّرات، يطالب بتطبيق حدّ قطع يد السارق، لكثرة انتشار الجريمة، وعدم جدوى عقوبة الحبس من منعها. فانبرى رجل نصراني اسمه "ماهر سامي يوسف"، يتحدث عن العقوبات التي سادت "القرون الوسطى"، تخللت فترات الامبراطورية الرومانية الغربية والامبراطورية العثمانية، فيعلن بشاعة مثل هذه الأحكام البدنية التي كانت توقعها نظمٌ استبدادية وحشية، لا ترى في المذنب إلا مجالاً للانتقام منه، ولا تحظى بمثل ما قام اليوم من دراسات متحضرة صافية النية، تعتبر المجرم فرداً أخطأ، يجب إصلاحه، لا قطع يده.

فالقوانين المدنية لم تعد تنظر للفاعل "نظرة عداء، تحاول أن تنقضّ عليه بمنطق السلطة الغاشمة، تسومه صنوف العذاب، والانتقام، ثمنا لنشاطه الإجراميّ، بل أصبحت تعامله

[41] واضح أن الشيخ لم تؤثر في علاقته القديمة الأخوية مع مندور، المقالة التي كتبها الأخير عن سلسلة الشيخ في الرسالة، ورد عليها في مقاله التاسع.

كمريض، وتجعله محل دراسة واعية، واختبار دقيق، متوسلة بهذا إلى إصلاحه... "[42] ثم كلّ هذا العبث الذي ركَّز فيها جهده لوصف الأحكام الشرعية بأقبح الصفات، ووصف القوانين الوضعية بالتحضر، والدراسة العميقة الدقيقة لصالح المجرم والمجتمع!

هذا من عجيب ما نُشر في جريدة الأخبار، يتستر كاتبه تحت نقد القوانين الرومانية والآشورية، لكنه، في حقيقة الأمر، يردّ على مقال يطالب بإعادة حكم الشريعة! ويقول إنه يرفض "بكل شدّة" مثل تلك الخطوة. وكما ذكر شيخنا، كيف عرف أن ملايين المسلمين، يرفضون معه، وبشدة، هذا التطبيق!

ثم العجيبة الأخرى، فجاءت من الأهرام، بوحي من مستشارها الثقافيّ، حيث نشرت في قسمها الجديد "دائرة المعارف"، مقالاً مُبهمَ العنوان "الضريبة في العصور الوسطى"، قال فيه أن النظم الضريبية في العصور الوسطى اختلفت بين النظام الكنسيّ والدول الإسلامية. وقال كاتب المقال المجهول، أن النظام الكنسيّ منع السلطة السياسية من الانقضاض على المال العام!! وما يوحي به هذا الصعلوك أنّ الإسلام، الذي ليس فيه نظام كنسيّ جعل الحكام يعيثون الفساد في الأرض! وهي مغالطة تاريخية عجيبة، إذ من المعلوم ما فعل النظام الكنسيّ من بشاعات مالية وسياسية وعقوبات بدنية لا يمكن وصفها، بله مقارنتها بالنظام الإسلاميّ، لكنه الكذب والمغالطة والتزييف[43].

(21)

ثم يمسك شيخنا بتلابيب الشرلتان مرة أخرى، ليبيّن فوق البيان، ما عليه الرجل صاحب "الخلوة المشهودة تحت أشجار الدردار بكمبردج"! من عماية بصر وفراغ عقل.

يتمطى الشرلتان، هذه المرة، فيلبس مسوح المُعَزِّي في وفاة مندور، فيكتب بلهجة ركيكة، مليئة بالرموز اليونانية السخيفة عن أنه، ومندور، خرجا "في صباح الحياة" لينازلا الأشباح والكائنات الشريرة التي جمعتها عليهم طروادة الجديدة (وهي رقعتنا العربية الإسلامية!)،[44] والتي يجب تدميرها وحرقها، كما تمّ لطروادة القديمة على يد أجاكس ، الذي لا يفتأ ذلك

---

[42] أباطيل وأسمار ص 401

[43] السابق ص 409

[44] السابق 451

الشرلتان أن يتخذه رمزاً لبطولته وفحولته، وهو لا يعلم، وأنّى له أن يعلم، أن هذا الأجاكس كان متهوراً جسوراً قويّاً إذا أثارته رائحة الدم، إذ لا عقل له ولا حكمة، بل هو مجنون تائه في سمادير أوهامه وغلّه وحنقه. ويعيد سبب هذا، إلى "الرجعية"! وكأن غير الرجعيّ، أو التقدميّ، أو الحداثيّ أو المتطور، أو ما شئت من هذه الألفاظ، لا يكون إلا بمهاجمة ثوابت ثقافتنا وديننا وأحكام شرعنا!

ثم يستمر الشرلتان في بثّ حقده التبشيريّ الاستعماريّ الخبيث، ينتقل من رمزٍ إلى رمزُ ومن أسطورة إلى أختها من أوهام يونان، كأسطورة الملك ميداس، والربّة أثينا! وكلها صادرة عن ذات العقليات الإغريقية الهالكة، تعكس فكراً أشبه بالفكر، وما هو به، إذ هو "جُبْنٌ لُغَويّ" كما أسماه شيخنا من قبل. فيعرّج على ذكر كتاب، كان يُدرّس في قسم اللغة الأنجليزية، لبرنارد شو. وقد ذكر كاتب مقالة جديدة يتمسح فيها بموت مندور، كيف أنّ هذا الكتاب أثار هياجاً جعلت خفافيش الظلام تهاجم الجامعة وتحكم من أثاث غرف عميدها، لأن بهذا الكتاب محاورة عن شخص يتحدث عن نبينا صلى الله عليه وسلم بسئ القول! ثم كتاباً آخر، مما كان يُدرّس أيضاً في قسم اللغة الأنجليزية، اسمه "محاورات من الخيال"، عن "محمد ومرجليوس"، وهي محاورة لم تقع فعلاً إلا في مخيلة الكاتب، على لسان اللورد جلايشيم، الذي ذهب يكيل أشد ألفاظ السباب على نبيّ البشرية صلى الله عليه وسلم. ثم يشير علامتنا إلى ضرورة تتبع هذه الأقوال وربطها بعضها ببعض، لنعرف عن أيّ مصدر صدرت، ولأيّ غاية وُجِّهَت.

(22)

ثم يخلص الشيخ إلى ما كتبه الأستاذ "محمد عودة" عن القوس العذراء، وإطنابه في مدح مكانة العلامة بين رجالات أمتنا الأكابر، لكنه يعود فيشعر بحزازات في النفس من جراء مهاجمة الشيخ للثقافة الغربية، وتحويل المساجلة" بينه وبين أجاكس عوض إلى معركة شخصية هجومية بحتة!

وينعي الشيخ على صديقه "محمد عودة" هذا الحديث، فإنّ إلمام الشيخ بثقافة الغرب أشمل وأعمّ مما يكتبه بعض مبشرين مرقعين، بأسلوب ركيك ساقط، وأن ما دار على صفحات الرسالة ليس "سجالا"، إذ السجال هو ما ينتزع فيه كلّ امرئ بدلوه ما يمنه لإظهار صحة رأيه، فمن علا غلب. وأجاكس، لم يكتب حرفا في الردّ على حرفٍ مما كتب الشيخ، على كثرة

ما كتب، وقدّم من أدلة، تُفصح أنّ الأمر بالنسبة له، هو الذود عن أمته، لا مهاجمة شخص تافه كلويس عوض!

ثم في سلسلة مقالاته التالية "ليس الطريق هنالك" و "ثم .. ليس الطريق هنالك" ، لبيّن الشيخ مكانة فهم اللفظ في اللغة، مفرداً ومركباً، وأنه هو ما يجعل الناس يتعارفون على معان محددة، تدلهم عليها ألفاظهم، رغم تبدّل حدودها واشتقاقاتها على الدوام. ويذكر كيف بيّن معنى الثقافة والرجعية، وألفاظ الخطيئة والخلاص والفداء والتضحية. ثيعود فيطيل، بأسلوب شائق قديرٍ على معنى كلمة الدين، التي أشار إليها في مقاله الأخير، قبل هذا. ويُظهر حدود اللفظ اللُغوية والوضعية والشرعية، وكيف أن الله سبحانه استخدمه بالمعنى العام الذي يشمل كلّ مناحي الحياة بلا استثناء.

ثم يعود للشرلتان ليفضحه، لا في حالة شعره كما في "بلوتولند وقصائد أخرى" ولا في حالة نثره في "شرح أبي العلاء المعري"، لكن في حالة ترجمته لمسرحية شهيرة لديستيفانوس، اسمها "الضفادع" قصد بها إلى نقد طبقته من كتاب المسرحية، وترجمها الإنجليزي "جلبرت مري". فجاءت ترجمته كارثة أخرى من كوارث هذا المُبشر الصفيق، فالتوى بمعاني المسرحية التواءً تاماً، وأخرجها عن غرضها، وجعلها أشبه بمسرحية فكاهية "لاسماعيل يس" على حدّ تعبير شيخنا، لا مسرحية ثقافية نقدية لها قيمة عرفها قراء اليونانية، وترجموها إلى الإنجليزية. وبلغ من سفاهة أذيال التبشير والاستعمار أن قرّطوها بعد أن لُعبت فصولها على المسرح بأنها "معجزة اللغة العربية!".

(23) ثمّ غُلّقت الأبوابُ

"في الثالث من جمادي الأخرة سنة 1385، (30 أغسطس 1965) وأحاطت بي الأسوار، وأظلمت الدنيا، وسمعتُ، ورأيتُ، وفزعتُ، وتقزّزت .. وكان ما كان.

وعلمتُ، حتى لا أسائلُ واحداً ** عن عِلْمِ واحِدةٍ لكي أَزْدَادُهَا

وتسليت عن كل ما ألقى بقول شيخ المعرّة:

يسوسون الأمور بغير عقلٍ ** فينفذ أمرُهُم ويقال سَاَسهْ

فإفِّ من الحياةِ وأفِّ مني ** ومن زمن رئاسَتُهُ خَسَاسَهْ[45]

انتهي الكتاب

****

وتأتي النهاية المحتومة، لقصة شبه أسطورية، لولا شدة واقعيتها، حمل فيها رمحه العلامة شاكر، وفضح فيها مآرب التبشيريين المستعمرين، الصليبيين الحاقدين على إرث البشرية جمعاء، الذي حفظه لهم العرب، باختيار الله لهم، للعب هذا الدور الخطير الحاسم في تاريخ النوع الإنسانيّ على الأرض، منذ نشأته، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يُسدل الستار على مأساة وملهاة، هي ملحمة سال فيها دم التبشير وانقشع غبار الاستعمار، ووضُحت وسائل تخريبهما، التعليم والصحافة، فصار ذيولهما لا يستخفون بأقوالهم، ولا بأفعالهم، بل يلقون الأقوال ويفعلون الأفعال على عواهنها، فتخرجُ مطمئنة لمكانها، بين جثث أحياء وعقول موتى، صرعهم الجهل وأوردهم الغيّ موارد التهلكة.

فكان أن صدر قرار جمهوريّ بتاريخ 30 أغسطس 1965 بإيقاف الحملة المباركة التي شنّها علامتنا العربيّ الفحل، على دسائس التبشير وموائد الاستعمار.

ولا أدرى، كيف غاب عن علامتنا حقيقة الهالك عبد الناصر، الذي كان منافقاً من الدرجة الأولى بمرتبة الشرف، في تقديم أوراق اعتماده لدي سيدة الغرب آنذاك، وإلى يومنا هذا، أمريكا، فلم يرَ أنّ ذاك الهالك، بكلّابات نظامه، يحفظ تلك العينة شبه البشرية، لتقوم بدورها، الذي مهدته لها أدوات السطوة والعنف والتجبّر، الخاليّ من أي مسحة لعقل أو البرئ من كلّ ما هو برئ في دنيانا التي نعيشها، مبتلين ببلاء من خالق الخلق، حتى قيام الساعة.

(23)

الخلاصة والعبرة

---

[45] السابق 583

خلاصة ما قدّم لنا هذا السفر الفريد في بابه، من نظرٍ فاحصٍ في أعمال التبشير، التي هي النتيجة الحتمية للاستعمار العسكريّ، والتي استحكمت حلقاتها على ثقافتنا منذ منتصف القرن التاسع عشر، بتولى دنلوب للتعليم، وبشارة تقلا الخائن للصحافة، وظهور بذورات المبشرين كسلامة موسى وغيره من الأذلاء من ذراري المسلمين، الذين غرتهم الألفاظ الأجنبية بجرسها الأجوف، وحقيقتها الفارغة، أو أسال لعابهم منصب أو راتبٌ يوكل إليهم ليديروا مهرجان القضاء على ثقافتنا العربية، وعلى لغتنا العربية، لغة القرآن، التي وحدت هذه الرقعة الشاسعة قرونا متطاولة.

وحين ننظر اليوم، نرى أنّ النتائج التي حذّر منها علامتنا الشيخ محمود شاكر، وأبان عن بداياتها، وعلاماتها الصغرى، ثم الكبرى، قد تحققت كلّها. بل أصبحت السنة الرئيسة للإعلام والصحافة، هي استخدام العامية واستبدالها بالعربية، في كل مجال، سواء في الإعلانات أو الأفلام والمسرحيات، أو النشرات الإخبارية أو كل ما يُذاع ويُقرأ على الناس، دون عتبٍ! وأصبح التعليم العربيّ مسبة ومنقصة، والتعليم الأجنبي عزة ومشرفة! فصار من تمام اللياقة ألا يعرف الشاب معنى كلمة يرددها بالعربية، بل هو يعرفها بلغة الفرنج لا غير، وإلا فإن ذلك ينعكس سلباً على طبقتة الاجتماعية، وبيئته التربوية.

وهذا الانسلاخ التام من ثوبنا العربيّ قد استغرق حولاً من مائة وخمسين عاماً ليتم بهذا النجاح المبهر، حتى أن أساتذة الجامعات أنفسهم، بل والقضاة ووكلاء النيابة، بل وكثرة من الدعاة!، أصبحوا لا يعرفون كيف يُرفع الاسم والفاعل وينصب المفعول، والفرق بين الجملة الاسمية والفعلية!

وقد أدى ذلك إلى خفض أسهم الدين في نفوس الشباب، من حيث صار من الصعب فهم الألفاظ القرآنية، وهو الغرض الأول والأصيل لدعاة العامية والتغريب في بلادنا.

ولا زال المستوى العام في انحدار إلى هوة لا نرى لها قرار.

ولا زلنا، نحن المتمسكون بعرى الإسلام، لا نريد لها انفضاضاً، نحمل القلم، ونتَّبع قدواتنا الفذة الفريدة، مثل شيخنا العلامة محمود شاكر، والعلامة محمد محمد حسين، والعلامة الرافعي، جاهدين في إعادة الصواب إلى بعض العقول التي استهوتها الشياطين، فأزلتها عن جادة الطريق.

والواجب على كلّ أبٍ مسؤولٍ أن يُساهم في عملية إعادة بناء ثقافة الأمة، ولغتها، وتعليمها، ومن ثمّ حضارتها، فدينها. وأن يكون في بيته وبين أهله وولده، مثالاً يُحتذى في كشف فضائح الخائنين، وطرقهم وأساليبهم، والوقوف في سبيل تمكينها واتساع دائرتها.

د طارق عبد الحليم

9 أكتوبر 2019 – 10 صفر 1441

(1)

(2)

(5) السابق ص

9 أكتوبر 2019 – 10 صفر 1441